قصة الثورة الافغانية
في مواجهة البنية القبلية والتآمر الخارجي

القرار الاخير للحكومة الافغانية بالسماح للمواطنين الصحفيين الاجانب بالدخول الى افغانستان لاطلاق سراح اكثر من ١٠ آلاف معتقل سياسي ، قد دلت على حساسية الاوضاع الداخلية ، وعلى انه لم يبق سوى ايام قليلة لتصفية الثورة الافغانية دورها التاريخي ، الذي حاول صباح خليط امس في قيادته حزب الشعب الديمقراطي ، ومن خلال توجهاته الوحدوية الموالية للصين صرفها عنه الى التدريج .

كما اعلنت باكندات الرئيس الامريكي كارمال على الصداقة مع الاتحاد السوفيتي والدول الاشتراكية وايدته للثورة الايرانية وللشعوب العربية ورفضه لاتفاقات كامب ديفيد من اهم الاسباب التي ادت من مخاوف الاوساط الامبريالية والرجعية ودفعتها لتشمير عن اذرعها ورفضها للنظام الجديد .

ولقد اشار المراسلون الاجانب الذين دخلوا افغانستان مؤخرا الى هدوء الاوضاع بشكل عام ، والى عدم وجود اى دلائل عن وجود عسكري سوفيتي في مطار كابول كما افادت وكالات الانباء الغربية من قبل . وقال مراسل وكالة رويتر ان المطار المذكور الذي وصفته الدعاية الغربية بانه قد تحول الى ثكنه عسكرية لاستقبال الجسر الجوي السوفيتي ، لا توجد فيه سوى طائرتين من طراز انتونوف ١٢ و ٢ طائره هليكوبتر فقط .

اما المراسل التلفزيوني نيك داوني فقد صرح بان التواجد الرئيسي "لرجال القبائل" المعارضين للحكومه المركزية هو في باكستان ، حيث اقيم ١٣ معسكرا للتدريب . واضاف داوني" ان رجال القبائل متقسمون على انفسهم وينقسم القيادة الناجحة ويقاتلون من اجل السلب والنهب والحصول على الغنائم" واكد ان زعماء التمرد هم من الاقطاعيين والامراء القدامى ويقاتلون من اجل الحفاظ على وضعهم الاقطاعي المهدد ولوقف الاصلاحات التي ادخلتها الحكومة المركزية مثل الاصلاح الزراعي .

ومن ناحيتها افادت وكالة تاس السوفيتية ان خبراء اميركيين وبريطانيين يتولون الاشراف على معسكرات التدريب الباكستانية وانه قد اعدت العدة للقيام "بعملية غزو افغانستان" . وقالت الوكالة ان مجموعات من المتعصبين والحاقدين قد قاموا باحراق القرى وابادة عائلات باكملها وقطع الايدى وفقء العيون وذبح النساء والاطفال" .

وتأمر الدول الامبريالية والولايات المتحدة الامريكية بشكل خاص على الشعب الافغاني قد دفعها ايضا الى وقف "مساعداتها" العدائية لافغانستان ، واتخذت وتتخذ مجموعة من الاجراءات والخطوات الاخرى المعادية للاتحاد السوفيتي وسياسة الانفراج الدولي بحجه تدخل السوفييت في شؤون افغانستان الداخلية ، ويحلو للدول الغربيه ان تعزف في هذه الايام على وتره الخطر السوفيتي والهجوم والترويج لفكرة ان الشعب الافغاني المؤمن يرفض النظام الماركسي الملحد الذى يقوده كارمال رغم حزب الشعب الديمقراطي .

والمدخل الى الربط بين الطبيعة الاشتراكية والمعادية للامبريالية للنظام الجديد والموالاة للسوفيات

يفسر تفعيل الدعاية الغربية على نطاق واسع الى حد بدأت الحديث عن استخلاص دروس التجربة الافغانية يقدرن آليا بالوجود السوفيتي .

لكن الربط بين السوفيات والتمرد في التجربه الافغانيه يبقى هامشيا نظرا الى خصوصية العلاقة السوفيتية ـ الافغانية .

فافغانستان التي تمتد حدودها مع الاتحاد السوفيتي مسافة ٢٢٠٠ كم وتشترك معه في احتواء ٣ قوميات مختلفة هي الناحيك "شرقا" والاوزبك "في الوسط" والتركمان "غربا" ارتبطت منذ توحيدها بعلاقات خاصة مع الاتحاد السوفياتي .

وفي العصر الحديث وبعد ما رفعت افغانستان نظرا الى هذه العلاقات التاريخية ان تستخدم من قبل الانكليز قلعة للتخريب على الثورة السوفياتية الفتية ، اصبحت العلاقات الاقتصادية والعسكرية بين البلدين حجر الزاوية في علاقات افغانستان الخارجية .

واستمرت هذه العلاقات في وتيرة متصاعدة على اختلاف الوجوه التي تعاقبت على السلطة الافغانية .

وبموجب هذه العلاقة قدم الاتحاد السوفيتي مساعدات تقنية وعسكرية هائلة لافغانستان ، في مجالات التصنيع والري وفي محالات تدريب الكوادر العسكرية .

وعلى امتداد هذه العلاقة التي حكمها الحوار بالدرجة الاولى ، لم تتخذ (باقل تعديل) الاعتراضات على مساعدة "الدول الملحدة" للبلد "المؤمن" اشكالها العنيفة التي تأخذها حاليا .

ان ذلك يعني ان الوجود السوفيتي في افغانستان ليس هو السبب الذى حرك "التمرد المعادى في الداخل او الحملة المسعورة في الخارج ، وانما يعني ان هذا الوجود ترافق مع عملية داخلية تتوجه نحو ادخال تعديلات وتغييرات في العلاقات الاقتصادية والاجتماعية اساسا ؟

وهذه التعديلات والتغييرات نبعت بالتأكيد في التوجهات والخيارات الاساسية التي اتخذتها الثورة الافغانية وليس من مجرد تعمق العلاقة مع السوفيات .

ومن هنا فان طبيعة النظام السياسي هي التي لعبت الدور الاساسي في تحريك تناقضات طلت كامنة في المرحلة الماضية بسبب ان النظام السابق لثورة نيسان ١٩٧٨ لم يكن ضمن افقه السياسي ادخال تحولات داخلية كانت وتبقى مطلوبة في سياق بناء الدولة

فافغانستان تضم نحو ١٧ مليون نسمة تتوزع على ٦٥٠ الف كم مربع لها حدود مع كل من ايران وباكستان والصين والاتحاد السوفياتي .

صورة حديثة من كابول تظهر احتماعا جماهيريا تأييدا للاجراءات الاخيرة التي اتخذها مجلس الثورة الافغاني لحماية مكاسب ثورة ابريل ١٩٧٨

التجزئة والتخلف

وتخضع هذه الشعوب لنظام قبلي صارم . ويضاف الى التجزئة القبلية ـ الاجتماعية ، تجزئة طبيعية اذ تخترق البلاد سلسلة من الجبال تفصلها عن بعضها البعض والقبائل ما زالت تعيش في ظل النمط الزراعي او الرعوى . وفي كلا الحالتين تظل تعتبر ان اعمال التهريب هي من الموارد الاساسية والمربحة في حياتها وذلك نظرا لانتشارها على مناطق الحدود مع باكستان وايران والصين . ويلاحظ ايضا ان الانظمة القائمة في هذه الدول قد ساعدت رجال القبائل في اعمال التهريب بينما لم تحصل مثل هذه الانتهاكات على الحدود الافغانية ـ السوفيتية والتي تميزت بالهدوء طيلة السنوات الماضية .

ولقد سعت السلطة الثورية الى توحيد البلاد عبر برنامج تحديثي يصنيعي لنقل القبائل من الطور الرعوى الى الزراعي ومن الزراعي الى المدني وذلك للقضاء على واقع التجزئة القبلية . وفي ظل صراع التجزئة والوحده يمكن فهم اسباب "التمرد" الحاصل في افغانستان ، والذى يوفر واقع التخلف وارتفاع نسبة الامية الى ٩٥ بالمئة ، ارضا خصبة لانعاشه .

التآمر الخارجي

وفي هذا المجال ، لم يكن صدفة على الاطلاق ان تجد هذه القبائل حليفا اساسيا في شاه ايران المخلوع وفي نظام ضياء الحق في باكستان وفي قادة بكين ، والتي حاولت ان تجد منفسا جديدا لحملات التعبئه ضد عدو خارجي ، وشرارة محتملة قد تنقل اللهيب الى داخلها والذى بلغ التطلع فيه درجات مرتفعة

تراكي : شهيد الثورة

ومن دون الدخول في تفاصيل التوزع القبلي للسكان ، فان كبرى القبائل الافغانية قبيلة "باشتو" ـ وتشكل ٤٠ بالمئة من سكان البلاد تعيش في سلسلة جبال شاهقة تمتد من الشمال الشرقي الى الجنوب الغربي ، في ظل شرائع وقوانين قبلية خاصة بها . اما قبيلة هزاره ، فهي تعيش في المنطقه الجبلية الوعرة في وسط البلاد وبلغ عددها نحو ٤ ملايين نسمة ، وقبيلة البالوش تعيش في المناطق الصحراوية الجافة في القسم الجنوبي . اما الناحيك والاوزبك والتركمان فانها تعيش حياة مدينية في العاصمة كابول وفي المراكز المدينية الاخرى شمال ووسط البلاد

ومن موقع العداء للعملية الثورية في افغانستان وارتباطها مع الدول الاشتراكية ، تدفقت اموال السعودية والخليج على المتمردين هناك ، فيما وقفت هذه الدول وما زالت تقف موقفا عدائيا واضحا من الثورة الدينية الايرانية وعلى هذا الاساس ايضا فلم يكن غريبا ان ينفي احد مسؤولي "الحزب الاسلامي" الافغاني في حديث لاحدى المجلات العربية ان يكون قد تاثر حزبه بالثورة الايرانية .

التحالف والارتداد

في ظل الواقع القبلي المفكك سياسيا واجتماعيا ، والتدخل الاجنبي الى جانب ابقاء هذا التفكك ، قامت طلائع متقدمة في الجيش الافغاني واصطدمت برئيس الجمهورية السابق محمد داود في ٢٧ نيسان ١٩٧٨ بدعم وتاييد من حزب الشعب الديمقراطي الافغاني والذى تشكل من التحالف بين حزبي "خلق" (الشعب) "وبرشام" (الراية) .

وعلى قاعدة هذا التحالف بين الطليعة السياسية والجيش تشكل المجلس الثورى والذى روعي فيه توزيع الحقائب بالتساوى بين حزبي خلق وبارشام والعسكريين

ولقد عكست دقة التوزيع هذه ، طبيعة القوى العديدة وذات الميول المختلفة التي اشتركت في انتحضير لانتفاضة ٢٧ نيسان .

ومع استتباب الامر للسلطة الجديدة بدات بعض احنحة حزب "خلق" باستقطاب مراكز القوى ولقد ظهر ذلك في التعديلات الحكومية المتتالية والتي كان آخرها استيلاء جناح حفيظ الله امين على السلطة وقيامه بتصفيه شاملة ذهب ضحيتها نور محمد تراكي زعيم الحزب والدوله وقادة حزب "بارشام" ومن بينهم باباراك كارمال والذى ابعد الى الخارج عندما تولى امين رئاسة الوزراء قبل استيلائه على السلطة كاملة .

كارمال : يصحح مسار الثورة

ولقد تزامن استئثار "امين" بالسلطة مع اشتداد "التمرد القبلي وازدياد التدخل الخارجي في شؤون افغانستان الداخلية ، وامام انحسار قاعدة السلطة نتيجة لاعمال القمع الواسعة التي مارسها حفيظ الله امين ، فقد حاول في المدة الاخيرة اعادة بعض العناصر الرجعية الى الحكم وعقد اتفاقا مع بعض "زعماء التمرد" في باكستان والصين . وقبل ان يرسل وزير خارجيته الى باكستان لتوقيع الصفقة قام حزب الشعب الديمقراطي بعزل "امين" وتصحيح مسار الثورة والحزب وطلب العون من الاتحاد السوفيتي لوقف الغزو الخارجي الذى كاد ان يخضع له ويعترف به الرئيس السابق

وهكذا فقد ساهمت تصفيات حفيظ الله امين والتدخل الخارجي في اعاقة تنفيذ برامج السلطة الثورية طيلة الاشهر الماضية ، وخصوصا وان اندلاع معارك التمرد قد واكب تطبيق الاصلاح الزراعي الذى حاربه زعماء القبائل في عنف وشدة والذى تزافق ايضا مع اقدام السلطة على منع التهريب ، المصدر الاساسي لعيش القبائل الحدودية .

واذا كانت النظم المتعاقبة في كابول قد تفادت "شر القبائل" فلانها لم تحاول مرة ان تضم هذه القبائل الى الدولة الافغانية ، واذا كانت هذه النظم اكتفت في السابق بحكم المدن الاساسية وتركت للارياف والصحارى والجبال امر ادارتها لزعماء القبائل ، مع كل ما نتج عن ذلك من بؤس وفقر وتخلف وحرمان ، فان السلطة الثورية الحالية قد اطلقت رهانها في ربط مكافحة التخلف والبؤس والفقر والحرمان ببرنامج مركزى "فاستحقت" تمرد زعماء القبائل واستنفار الامبريالية الاميركية وعداء نظام ضياء الحق وحكام بكين والسادات وامراء السعودية وقادة اسرائيل وغيرهم .. وهذا دليل اكيد على سلامة نهج هذه الثورة .